حضور الدرس النفسي في اللسانيات

سمية جلايلي

ترجع العلاقة بين علم اللغة وعلم النفس إلى طبيعة اللغة، بوصفها احد مظاهر السلوك الإنساني، فإذا كان علم النفس يدرس السلوك الإنساني عموما، فان دراسة السلوك اللغوي احد جوانب الالتقاء بين علم اللغة وعلم النفس.

فالكلام ليس مجرد إصدار أعضاء من الجسم الإنساني لأصوات معينة، وان هذه الأصوات توجه إلى إذن السامع وتقوم في ذهنه عمليات عقلية متعددة، حتى تتحول الأصوات إلى دلالات. والمتكلم نفسه قبل أن يشرع في الكلام وأثناءه وبعده تقوم في نفسه سلسلة من العمليات العقلية أو النفسية ففهم الكلمات وبعض ما يتعلق بها من حيث تكوينها وسماعها مرتبط بسلسلة من العمليات العقلية.

والإنسان لا يستخدم اللغة للتعبير عن شيء فحسب، بل للتعبير عن نفسه أيضا ويذهب بعض العلماء إلى أن الألفاظ ليست إلا رموزا تعبر عن المعاني الكامنة في النفس، وهي ضرورة للتقدم العقلي لأنها هي التي تثبت كل خطوة يخطوها الذهن البشري. ومعنى ذلك أن المعنى يظل حائرا في الذهن حتى يستقر في الكلمة المناسبة، وحينئذ يتحدد المراد منه، وحينئذ يتحدد المراد منه، ويثبت ويتضح[1].

وعلى ذلك فان اللغة يصح أن تدرس على أنها أداة عقلية فحسب، لأن الإنسان كما يتكلم ليصوغ أفكاره، فانه يتكلم ليؤثر في غيره من الناس، وليعبر عن إحساسه وشعوره وعواطفه، فهو يعبر باللغة عن نفسه كما يعبر عن أرائه، بل انه يمكن القول بان التعبير عن أية فكرة لا يخلو مطلقا من لون عاطفي إلا إذا استثنينا التفكير العلمي أو اللغة العلمية التي يجب أن تكون معبرة عن الفكرة المحضة، والحقيقة المجردة الخالية من الانفعالات النفسية.ولهذا وغيره ارتبط علم اللغة بعلم النفس واستعان بكثير من الحقائق التي توصل إليها هذا العلم كما استعان بحقائق توصلت إليها علوم أخرى غير أن علم اللغة مع ذلك احتفظ باستقلاله فلم يتخذ مناهج علم النفس ووسائله كما انه لم يتخذ منهج أي علم آخر ووسائله.

تبنى بلومفيلد المذهب السلوكي صراحة عندما شرع في إعداد كتابه "اللغة"، والواقع لم يتطرق بلومفيلد نفسه إلى ذكر المذهب السلوكي إلا عند بحثه في الجوانب الدلالية فهو يذهب إلى أن تحليل المعنى هو نقطة الضعف في الدراسة اللغوية[2].

ويعتبر بلومفليد من المتأثرين بواطسون (1878-1958) الذي رأى أن علم النفس ليس في حاجة إلى التسليم بوجود العقل أو أي شيء آخر لا يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة أو قياسه إذا ما أردنا أن نفسر النشاط والقدرات الخاصة التي يتمتع بها البشر، وهذا الذي

يذهب إليه واطسون وبلومفليد يعتبر مغايرا لما ذهب إليه علماء النفس التقليديون، الذين يرون أن علم النفس في حاجة إلى عملية ذهنية وعقلية، لأن سلوك أي كائن عند السلوكيين ابتداء من الأ ميبا وانتهاء بالكائن البشري لا يمكن تفسيره عندهم إلا في ضوء المثيرات والاستجابات، والتي تحدث في البيئة المحيطة بالكائن الحي[3].

واللغة عند بلومفيلد ومن تبعه من السلوكيين ليست إلا نوعا من الاستجابات الصوتية لحدث معين، فالإنسان يسمع كلاما معينا آو يرى شيئا أو يشعر شعورا ما، فيتولد عن ذلك استجابة كلامية دون أن ترتبط هذه الاستجابة بأي صورة من صور التفكير العقلي ، والإنسان في هذه العملية السلوكية يشبه الحيوان[4].

وقد ظهر تأثر علماء اللغة بالمذهب السلوكي بأنهم نظروا إلى اللغة على أنها مجموعة من العادات كغيرها من العادات السلوكية الأخرى، وبناء على ذلك فإن من الممكن دراسة تركيبها من ناحية وتعليمها من ناحية أخرى على هذا الأساس وكان من أشهر من قال بذلك العالم الشهير سكينر أو هو صاحب الكتاب الشهير "السلوك اللغوي" وقد كان لهذا التأثر بمذهب علم النفس السلوكي نتيجتان:

أولهما : النظر إلى ظاهرة اللغة ودراسة تلك الظاهرة مثلها مثل أية عادة سلوكية أخرى.

ثانيهما: إهمال دراسة المعنى على اعتبار أنه ليس مظهرا خارجيا يمكن النظر فيه بالمنهج العلمي الموضوعي المستخدم في العلوم الطبيعية.

لقد أهمل اللغويون هذا الجانب الأساسي من جوانب اللغة وبذلك جردوها من أهم مظهر من مظاهرها وهدف من أهدافها[5].

ومن الأعلام اللغويين الذي تأثر في دراساته بعلم النفس العالم الأمريكي"نوام تشومسكي" حيث يعد من أقطاب النظرية المعرفية أو العقلية التي انتقدت بشدة النظريات السلوكية، فقد تصدى لكتاب "سكينر : "السلوك اللفظي، وقال : إنّ النظرية الإجرائية لـ " سكينر" أعجز من أن تفسر لنا قدرتنا على تعلم اللغة واستخدامها، ذلك أن الإنسان بخلاف الحيوان، ومن الخطأ استخدام مبادئ التعلم التي تم التوصل إليها نتيجة إجراء تجارب على الحيوان، لتفسير تعلم الإنسان فهذا الأخير هو الوحيد الذي يستخدم اللغة البشرية، فكيف نفسر شكلا من أشكال سلوك معقد، خاص بالإنسان كتعلم اللغة، عن طريق تبني مفاهيم ومبادئ جرى استنباطها من دراسات جربت على الحيوان الذي لا يستطيع القيام بهذا السلوك ؟

وبناء على ذلك افترض "شومسكي" أن لدى جميع الناس العاديين قدرة داخلية، تمكنهم من اكتساب اللغة، بينما لا تتوفر هذه القدرة عند ا لحيوان، ولابد لهذه القدرة أن تكون فطرية غير مكتسبة، أطلق عليها اسم (جهاز اكتساب اللغة) يبدأ في الاشتغال في سن مبكرة لدى جميع الأطفال مكونين بذلك نحوهم الخاص، من خلال ما يسمعونه من كلام في بيئتهم اللغوية، إذ يسمح لهم هذا النحو بنظم كلامهم، الذي يقترب شيئا ف شيئا من كلام الكبار بتقدمهم في السن، إلى أن يكتمل في مرحلة البلوغ .ويؤيد هذه الفرضية جملة أمور أهمها :

ـ أن الأخطاء التي يرتكبها الأطفال، ليست في حقيقتها أخطاء، بل هي دليل على أن الطفل يتعلم اللغة، وأن جهازه اللغوي يشتغل بكل همة ونشاط.

ـ القدرة على استعمال تراكيب وجمل لم يسمعها من قبل.
ـ القدرة على اكتساب أية لغة إنسانية، من دون أي تمييز، الأمر الذي يفسر أن الطفل يمتلك مسبقا قواعد كلية عامة.
كما تقوم نظرية "شومسكي" اللغوية على مفهومين أساسيين هما :
الكفاية اللغوية (Competence): وهي القدرة الموجودة عند فرد من أفراد المجتمع، وتتمثل في معرفة القواعد الصرفية والنحوية التي تؤلف الكلام، بالإضافة إلى قواعد تحويل الصيغ والجمل، حيث تمكنه هذه المعرفة من إنتاج وفهم الجمل الصحيحة في لغته.
أما المفهوم الثاني فهو الأداء اللغوي (Performance) وهو التحقيق الفعلي للأقوال أو الجمل الصحيحة في المواقف والسياقات التي يحتاجها.

فالكفاية اللغوية هي المعرفة الضمنية باللغة في حين أن الأداء الكلامي هو الاستعمال الني للغة ضمن سياق معين .

ويعتبر تشومسكي أن علم اللغة فرع من فروع علم النفس، وان أهم الأسباب التي تدفعنا إلى دراسة اللغة دراسة علمية ودراسة النحو التحويلي بخاصة أن هذه الدراسة دراسة ذات قيمة واضحة في فهمنا وإدراكنا للعمليات العقلية ومن هنا فان اندماج علم اللغة مع علم النفس واتحادهما معا إنما هو من اجل النتائج الهامة التي سيسفر عنها ه ذا الاندماج وليس من اجل تغير موضوعات علم اللغة أو مناهجه وبناء على ذلك نستطيع أن نفسر مصطلح الحدس الذي تردد كثيرا في مؤلفات تشومسكي الأخيرة.

وقد استفادت اللسانيات من علم النفس وعلم النفس التربوي خاصة من حيث الأسس العامة لتعلم اللغات.
فاللسانيات التطبيقية يتمركز مبحثها حول ثلاث عناصر أ ساسية في العملية البيداغوجية وهي:
1- المعلم: بالنسبة للمعلم يجب أن يتصف بصفات معينة منها:
- التأهيل العلمي والبيداغوجي للمعلم.
- القدرة الذاتية للمعلم في اختيار الطرائق البيداغوجية والوسائل المساعدة واستثمارها استثمارا ناجحا من اجل إنجاح عملية التواصل.
- إمكانية ترقية خبرة المعلم البيداغوجية في مجال تقويم المهارات.

فالقدرة الذاتية للمعلم في اختيار طرائق التعليم تستلزم منه ان يكون مطلعا على مواضيع علم النفس اللغوي وخاصة موضوع اكتساب اللغة لدى الطفل فهو مفيد له وان كان لا ينعكس بطريقة مباشرة على عمله ، على اعتبار أن الطفل يكتسب اللغة قبل أن يذهب إلى المدرسة، ولكن الفائدة تظهر في تفهم المدرس للأسس التي بنى عليها بعض اللغويين الذين كلفوا بتجهيز مواد تعليمية وتلك المواد وقدرته ونتيجة لذلك على التعامل مع تلك المواد بطريقة أفضل فهو يلاحظ على سبيل المثال أن بعض المواد التعليمية تتجنب حمل الطالب على استظهار قواعد اللغة، وتركز على تمثل تلك القواعد عن طريق الاستعمال والتطبيق ، فإذا فهم الأسس التي بنى عليها المؤلفون منهجهم هذا

استطاع تقديم المادة وتدريسها بشكل سليم وبوعي كامل.

2- المتعلِّم: - معرفة قابلية المتعلم الذاتية في اكتساب المهارات والعادات اللغوية الخاصة بلغة معينة. وذلك يتم عن طريق تطبيق الاختبارات النفسية الخاصة بالمهارات والروائز اللفظية.

- تعزيز آلية المشاركة لدى المتعلم وتحسين علاقتها بالتحصيل والاكتساب . وذلك بتطبيق نظريات التعلم (النظرية السلوكية، المعرفية...)

- مراعاة الفروق الفردية (العضوية، النفسية، الاجتماعية) ومدى انعكاسها على المردود البيداغوجي. ، وفي هذا يعتمد على دراسات علم النفس الفارقي

3-طريقة التعليم:

- البحث المستمر من اجل تطوير طرائق تعليم اللغات.

- استثمار النتائج والخبرات المتوافرة في ميدان التعليمية بصفة عامة.

- ترقية الخبرة البيداغوجية عن طريق التكوين المستمر قصد استخدام الوسائل السمعية البصرية المساعدة.

- الاهتمام بوضع مقاييس قائمة على أسس علمية دقيقة لعملية التقويم المهارات والعادات اللغوية المكتسبة.

فطريقة عرض الدرس تؤثر تأثيرا مباشرا على درجة التعلم فالمدرس الذي يستخدم وسائل إثارة الانتباه والتشويق لتلاميذه ويحسن تنظيم فقرات المادة وعرضها بحيث يراعي السهولة والانتقال من العام إلى الخاص يحقق نتائج أكثر امتيازا من غيره.

كذلك يتضح أن طبيعة المادة نفسها وملاءمتها للعمر الزمني وللحالات الخ اصة للمتعلم تعتبر ذات أهمية قصوى في هذا المجال .فكبار السن من التلاميذ يسهل عليهم فهمهم للحقائق المجردة بطريقة أفضل من صغار السن، وذلك ما يذكره "بياجيه" في مراحل النمو لدى الطفل فالطفل ينتقل من المحسوس إلى المجرد. أيضا المادة العلمية التي تقدم للأطفال الع ادیین تختلف عن تلك التي تقدم للمتأخرين ذهنيا سواء من ناحية النوع أو الكمية.

لذلك يجب مراعاة تلك الحقائق والأسس المعرفية لدى مؤلفي الكتب المدرسية وواضعي المناهج التربوية، لضمان تحقيق العملية التعليمية لأهدافها من جهة ولاستغلال إمكانيات التلاميذ وقدراتهم بطريقة علمية سليمة.

وفي العالم المعاصر حيث يتعاظم دور الإعلام ومن ثم يتعاظم دور اللغة في التأثير على الناس بل في السيطرة عليهم، فالإعلان التجاري يهدف إلى ترويج السلعة يعتمد على عناصر كثيرة من أه مها اللغة، حيث تختار ألفاظ وعبارات ذات معان محببة في النفوس للتأثير على السامعين أو المشاهدين.

وبذلك فانه يعتمد على التحليل النفسي وذلك لمراعاة الجوانب النفسية والاجتماعية للمرسل والمستقبل ومراعاة الخصوصيات لكل منهما، كذلك الأمر في الإعلان التجاري وكيفية التأثير باللغة فنجد انه يستعين بالتحليل النفسي وذلك بدراسة

السمات الشخصية العامة الموجه لها الإعلان والإشهار ولتحديد المفاهيم والمصطلحات التي تكون أكثر تأثيرا.

وأيضا في مجال علاج العيوب النطقية نجد أن هناك تعاون بين اللسانيات التطبيقية وعلم النفس خاصة الارطفونيا، فالمعالج عليه تشخيص الاضطراب لمعرفة نوعية الاضطراب وتحديد شدته وأسبابه بعد ذلك يأتي دور العلاج اللغوي والذي يتعاون فيه الارطفوني واللساني لمحاولة تصحيح النطق وتقويمه

ففي مجال الحبسة نجد أن علاجها كليا غير ممكن، لان مركز الإصابة في الدماغ (منطقة بروكا وفرنيكا) وبالتالي يكون العلاج عن طريق اكتشاف تلك المهارات اللغوية التي لازال المصاب يحتفظ بها، فيكون تعليم المصاب بالحبسة كتعليم اللغة لغير الناطقين بها.

الإحـــالات

[1] - م حمود فهمي حجازي. علم اللغة العربية.دار غريب.بط. ص48

[2] - مازن الوعر. دراسات في اللسانيات التطبيقية.دار طلاس. ط:01. 1989ص233

[3] - حلمي خليل.دراسات في اللسانيات التطبيقية.دار المعرفة الجامعية الإسكندرية. 2002.. ص40

[4] - حلمي خليل. نفس المصدر السابق. ص42

[5] - نايف خرما. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة.عالم المعرفة. الكويت.1978ص110-111

[6] - جون ليونز –تر: حلمي خليل. نظرية تشومسكي اللغوية. ص211

[7] - احمد حساني—دراسات في اللسانيات التطبيقية.حقل تعليمية اللغات.ص42

[8] - نايف خرما. نفس المصدر السابق..ص48

[9] - احمد حساني نفس المصدر السابق. ص42

[10] - حسن عبد العزيز.نفس المصدر السابق.ص131